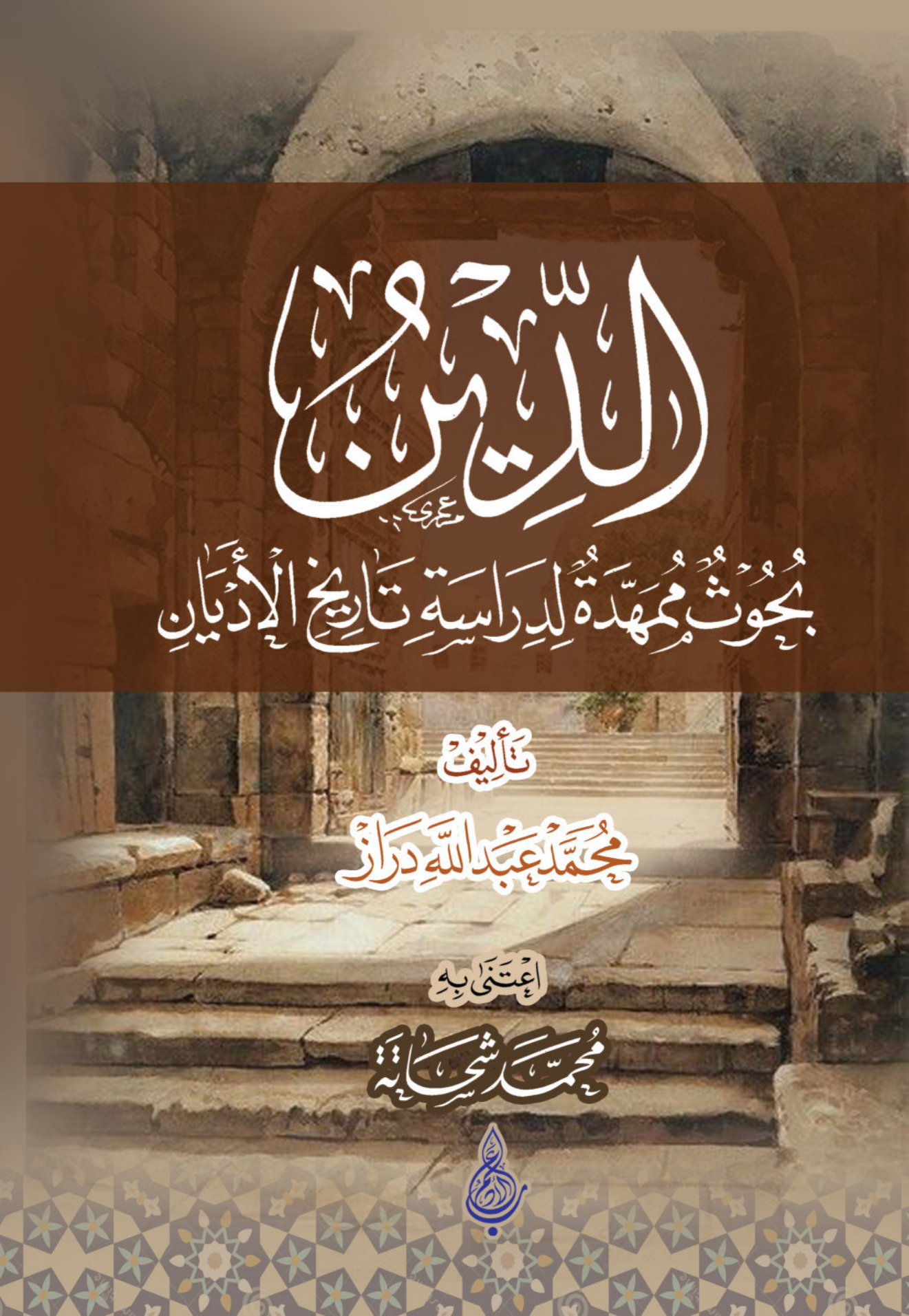

الدين

بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان

تأليف

محمد عبد الله دراز

اعتنى به

محمد شحاتة

منذ ثلاثة أعوام، ولأول مـرة في عهد جامعاتنا العصرية، أُدخِلَت جامعة (فؤاد الأول) في برامج كليــة الآداب بـها، مادة «تاريخ الأديان» لطلبة فرع الاجتمـاع من قسم الدراسات الفلسفية؛ ومنذ ذلك اليوم، عَهدَت إلي في أن أقوم بتدريس هذه الـمـادة، وفوّضت إلى أمر الخطة والمنهج؛ فرأيت من الخير، قبل الدخول في الدراسات التفصيلية لـمختلف الأديان -وهي دراسات من الـميسور نسبيـًا الرجوع فيها إلى أحد الـمؤلفات الـمعروفة في اللغة العـربية أو غير العربية- أن أُقدم بين يديـها بحوثًا عامة تستبين بـها ماهِية الدين، ونشأته، ووظيفته في الحياة، إلى أشباه ذلك من الأصول الكلية، التي يجد فيها الطالب الجامعي مجالاً لاجتهاد الرأي، وتدريب ملكة الحكم، والتي لم يُقدر لها أن تُجمع في كتاب من قبل. وإننا إذ ننزل اليوم على رغبة الطلبة الملحة، في نشـر ما سبقت دراسته من هذه الـمسائل الأمهات، نرجو أن نكون بذلك قد هيأنا لهم ولغيرهم من مـحبي الاطلاع فـرصة للنظرة الفاحصـة، والبحث الهادئ الرزين؛ حتى إذا لمسوا موطن حاجة لتهذيب أو تكميـل، كان من حقهم، بل من حق العلم عليـهم، أن يُهـدوا إلينا ملاحظاتـهم القيمة، مشكورين مأجورين.

محمد عبدالله دراز

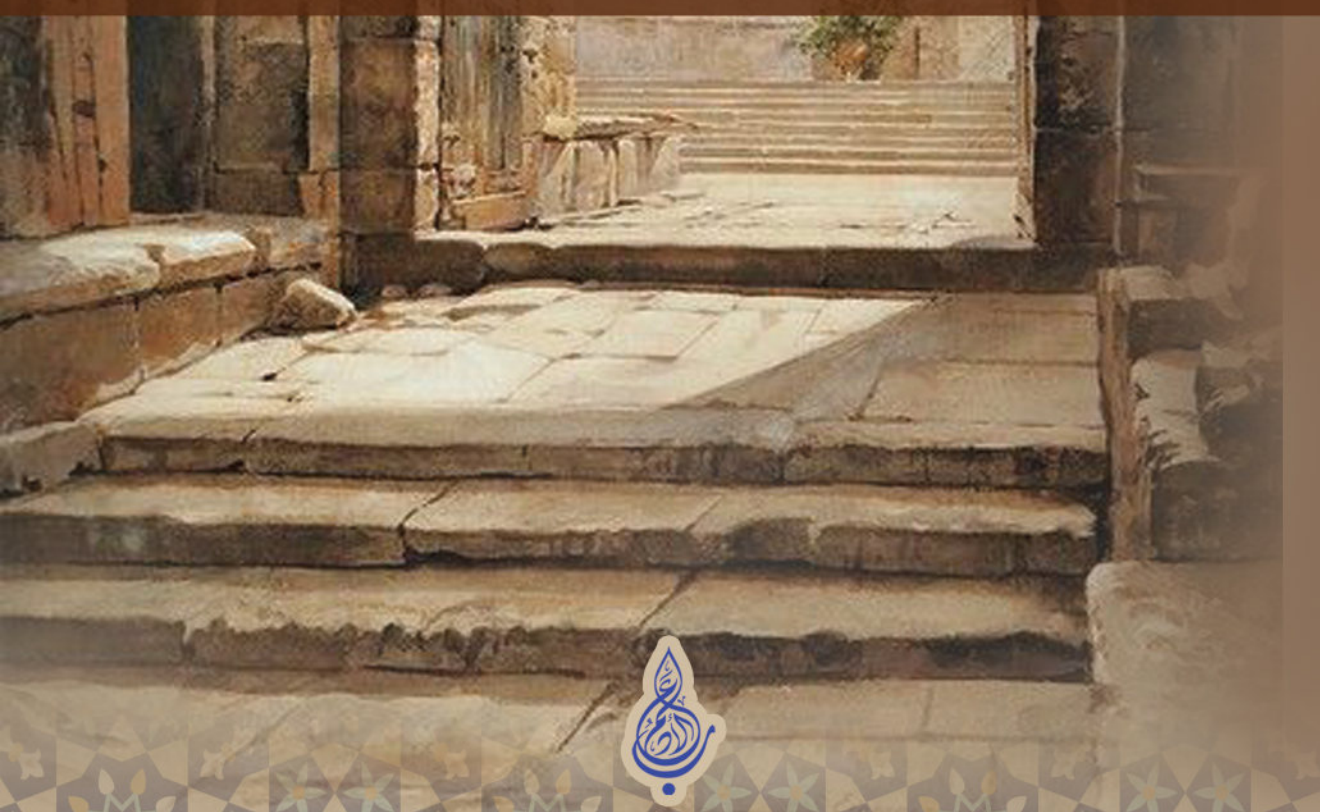

فهرس تحليلي للمباحث

الموضوع	الصفحة
لمحة عن حياة المؤلف	٧
مقدمة	١١
العصر الفرعوني	١٣
العصر الإغريقي	١٥
العصر الروماني	٢٢
العصر المسيحي	٢٤
العصر الإسلامي	٢٦
نهضة أوروبا الحديثة	٢٩
البَحثُ الأول: في تحديد معنى الدين	٣٣
المعنىٰ اللغوي	٣٥
معاجمنا العربية: قلة غنائها وسوء تأليفها	٣٦
محاولة رد أشتات المعاني إلىٰ معنًى واحد	٣٧
البَحثُ الثانيْ: في علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب	٦١
الدين والأخلاق	٦٣
الدين والفلسفة	٦٩
الدين وسائر العلوم	٨٢
البَحثُ الثالثُ: في نزعة التدين، ومدى أصالتها في الفِطَر ماضيها- مستقبلها- منبعُها في نفوس الأفراد- دورها في المجتمع	٨٧
أسئلة تتشوَّق النفس إلىٰ معرفة الجواب عنها	٨٩

عينة للقراءة

الموضوع	الصفحة

مدىٰ أقدميَّة الديانات؟ ٨٩
مصير الديانات أمام التقدم العلمي ٩٢
ينابيع النزعة الدينية في النفس البشرية **١٠٢**
وظيفة الأديان في المجتمع **١٠٦**
البَحثُ الرابعُ: في نشأة العقيدة الإلهية **١١١**
العوامل الأولىٰ لإيقاظها في النفوس **١١٣**
المذاهب الكونية أو الطبيعة **١٢٢**
١- الطبيعة العادية ١٢٢
٢- الطبيعة الشاذة العنيفة ١٣٢
المذاهب الروحية (المشهورة باسم الحيوية animisme) **١٣٤**
المذاهب النفسية **١٤٣**
١- نظرية ساباتييه ١٤٣
٢- نظرية برجسون ١٤٦
٣- نظرية ديكارت ١٤٩
المذهب الأخلاقي **١٥٢**
المذهب الاجتماعي **١٥٦**
المذهب التعليمي أو مذهب الوحي **١٦٩**
نظرة جامعة **١٧٠**

عينة للقراءة

لمحة عن حياة المؤلف

ولد عليه رحمة الله في قرية «محلة دياي» بمحافظة كفر الشيخ في عام ١٨٩٤، وانتسب إلىٰ معهد الإسكندرية الديني في عام ١٩٠٥ وحصل علىٰ شهادة الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢، وعلىٰ شهادة العالمية في عام ١٩١٦، ثم تعلَّم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص، ولم يكن إقباله علىٰ تعلم هذه اللغة حبًّا في المظهر، بل ليستخدمها فيما يعود علىٰ قضية بلاده ودينه بالنفع، فكان إبَّان ثورة ١٩١٩ يطوف مع الشباب علىٰ السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده ودينه كما كان يدافع عن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة «الطان» الفرنسية.

وفي عام ١٩٢٨ اختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩، ثم بكلية أصول الدين عام ١٩٣٠.

وفي عام ١٩٣٦ سافر إلىٰ فرنسا في بعثة أزهرية، واشتغل للتحضير لدرجة الدكتوراه، فكتب رسالتين عن «التعريف بالقرآن»، وعن «الأخلاق في القرآن» نال بهما دكتوراه الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة في عام ١٩٤٧.

وعلىٰ إثر عودته إلىٰ الوطن انتُدِبَ لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة، وحصل علىٰ عضوية جماعة كبار العلماء في عام ١٩٤٩، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم، واللغة العربية بالأزهر، وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية.

وفي عام ١٩٥٣ اختير عضوًا في اللجنة العليا لسياسة التعليم كما اختير عضوًا في المجلس الأعلىٰ للإذاعة، إلىٰ جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلًا لمصر والأزهر وفي اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر.

عينة للقراءة

وكانت آخر رحلة له رحلته إلىٰ باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة «لاهور» في يناير عام ١٩٥٨، وقد ألقىٰ هناك بحثًا عن «موقف الإسلام من الأديان الأخرىٰ وعلاقته بها» ثمَّ وافاه الأجل المحتوم في أثناء انعقاد المؤتمر، ففقد العالم الإسلامي بوفاته مثلًا فاضلًا للعالم الأزهري، الغيور علىٰ دينه المحافظ علىٰ كرامته، المتصوِّن في مظهره وسمته، الداعي إلىٰ صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

عينة للقراءة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

منذ ثلاثة أعوام، ولأول مرة في عهد جامعاتنا العصرية، أَدخِلَت جامعة «فؤاد الأول» في برامج كلية الآداب بها، مادة «تاريخ الأديان» لطلبة فرع الاجتماع من قسم الدراسات الفلسفية؛ ومنذ ذلك اليوم، عَهدَتْ إليّ في أن أقوم بتدريس هذه المادة، وفوَّضت إليّ أمر الخطة والمنهج؛ فرأيت من الخير، قبل الدخول في الدراسات التفصيلية لمختلف الأديان -وهي دراسات من الميسور نسبيًّا الرجوع فيها إلىٰ أحد المؤلفات المعروفة في اللغة العربية أو غير العربية- أن أُقدّم بين يديها بحوثًا عامة تستبين بها ماهِيَّة الدين، ونشأته، ووظيفته في الحياة، إلىٰ أشباه ذلك من الأصول الكلية، التي يجد فيها الطالب الجامعي مجالًا لاجتهاد الرأي، وتدريب ملكة الحكم، والتي لم يُقدَّر لها أن تجمع في كتاب من قبل.

وإنَّنا إذ ننزل اليوم علىٰ رغبة الطلبة الملحَّة، في نشر ما سبقت دراسته من هذه المسائل الأمَّهات، نرجو أن نكون بذلك قد هيَّأنا لهم ولغيرهم من محبي الاطِّلاع فرصة للنظرة الفاحصة، والبحث الهادئ الرزين؛ حتىٰ إذا لمسوا موطن حاجةٍ لتهذيبٍ أو تكميل، كان من حقِّهم، بل من حق العلم عليهم، أن يُهدوا إلينا ملاحظاتهم القيّمة، مشكورين مأجورين،

٩/ ٧/ ١٣٧١هـ

٤/ ٤/ ١٩٥٢م

محمد عبد الله دراز

عينة للقراءة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

عينة للقراءة

كلمة «تاريخ الأديان» كلمة مُعرَّبة عن لغة الفرنجة.

والتسمية بهذا الاسم مستحدثة؛ لم تَعرِفها أوربا إلا عند فجر القرن التاسع عشر[1].

علىٰ أنَّ الحديث عن العقائد البشرية هو في جوهره شأنٌ قديم، معاصر لاختلاف الناس في مِلَلِهم ونِحَلِهم تتسع مادته حينًا وتضيق حينًا بمقدار تعارف أهل الأديان فيما بينهم، ووقوف بعضهم علىٰ مذاهب بعض، كما يختلف طابعه ووجهته، مسايرةً لتشعب نزعات الباحثين وأهدافهم.

ولو أنَّنا تتبَّعنا سلسلة الحديث عن الأديان مِنْ عهد الفراعنة، فاليونان، فالرومان، فالمسيحية، فالإسلام، فالنهضة الحديثة، لاستطعنا أن نتبيَّن اختلاف صُوَرِه فيما بين العَصرِ والعصر، بل ربما بين الفترة والفترة مِن فترات العصر الواحد.

---

(١) «ظهر مصطلح (علم الأديان) لأول مرة، ترجمة حرفية لكلمة ألمانية هي: "Religions wissenschaft"، التي استعملها ماكس مولر، عام (١٨٦٨م)، عنوانا لكتابه، وكانت تعني حرفيا (الدراسة العلمية للأديان)، ثم استعملها الفرنسي إميل بورنوف في فرنسا عام (١٨٧٠م)، اسما لكتاب ألفه في باريس؛ ليصف به مجموعة متفرقة من العناصر الخاصة بدراسة الأديان، ويدعوها (علم الأديان)» انظر: علم الأديان، خزعل الماجدي، نشر: المركز الثقافي العربي (٤٩) [كل التعليقات التي لا تنتهي بحرف الدال فهي من وضع مُعد هذه النشرة].

العصر الفرعوني

لم يصل إلىٰ أيدينا سجل جامع دوَّن فيه قدماء المصريين دياناتهم وديانات جيرانهم، ولكنَّ البحوث الأخيرة أثبتت إثباتًا لا يخالطه وهم، أنَّ المصريين منذ ألوف السنين قبل ميلاد المسيح عليه السلام بدأوا يُسجِّلون عقائدهم وعوائدهم ووقائعهم، وألوان حياتهم، أقوالًا متفرِّقة، مسطورة في قراطيس البردي، أو منقوشة علىٰ جدران المقابر والمعابد، وأنَّهم تركوا إلىٰ جانب ذلك مجموعات عظيمة من التماثيل المنحوتة، والأجساد المحنطة، لملوكهم ورؤسائهم ومقدساتهم من الطير والحيوان والأناسِيّ وغيرها، وكذلك صنعوا في شأن الأقاليم التي افتتحوها (كبلاد النوبة وسوريا والعراق وغيرها).

وعلىٰ قدر سعة فتوحهم اتسعت صدورهم لمختلف العقائد، فتركوا لكل إقليم حريته في تقديس ما شاء، واتخاذ ما شاء من الرموز الموضعية.

وامتدت روح التسامح هذه إلىٰ مدارسهم الفلسفية الدينية، فكان عمل هذه المدارس هو محاولة التوفيق بين تلك المقدسات والمعبودات، بافتراض أنها أسرة واحدة يرتبط بعضها ببعض، ارتباط الزوجية أو الولادة، بحيث يتألف منها مجموعات: «ثالوث» أو «تاسوع»، أو عدد أدنىٰ من ذلك أو أكثر[1].

---

(١) والاسم الذي أطلقوه علىٰ هذه الألوهية هو نتر "Neter" وكان يُرمَز إليه بفأس ذي رأس حجري ومقبض خشبي، وتحيط بالرأس أربطة جلدية أو قماشية لتثبيتها علىٰ المقبض، وقد صار هذا الرمز إشارة هيروغليفية للدلالة علىٰ مفهوم الألوهية في الكتابة المصرية. ويبدو أنَّ اختيار إنسان ما قبل التاريخ لرمز الفأس كان من قبيل التأكيد علىٰ جانب القوة الظاهرة في هذه الأداة، ويدعَم هذا الرأي أنَّ كلمة «نتر» بالذات تعني القوة =

البَحثُ الرابعُ

في نشأة العقيدة الإلهية

عينة القراءة

العوامل الأولى لإيقاظها في النفوس

أشرنا في البحث السابق إلىٰ أنَّ ظاهرة التدين تستند في أصلها إلىٰ مبدأين مرتكزين في بداهة العقول، وهما قانونا «السببية والغائية» ونبادر الآن فنكرِّر أنَّ هذين القانونين متىٰ فُهِمَا علىٰ كمالهما انتهيا إلىٰ أسمىٰ العقائد الدينية: عقيدتي التوحيد والخلود؛ وأنَّ عقائد الشرك والوثنية والفناء إنما هي وليدة ضربٍ من الغفلة أو الكسل العقليّ يقف بها في بعض الطريق.

أما قانون السببية فيقرِّر أنَّ شيئًا من (الممكنات)[1] «لا يحدث بنفسه من غير شيء»؛ لأنَّه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، «ولا يستقل بإحداث شيء»؛ لأنَّه لا يستطيع أن يَمنح غيره شيئًا لا يملكه هو، كما أنَّ الصفر لا يمكن أن يتولَّد عنه عدد إيجابيّ؛ فلا بُدّ له في وجوده وفي تأثيره من سببٍ خارجيٍّ؛ وهذا السبب الخارجي إنْ لم يكن موجودًا بنفسه احتاج إلىٰ غيره؛ فلا مفرَّ من الانتهاء إلىٰ سببٍ ضروريٍّ للوجود يكون سبب الأسباب.

---

(١) التعبير المشهور هو أنَّ شيئًا لا يحدث من لا شيء، وقد أضفنا عبارة: «من الممكنات» تحديدًا للمجال الحقيقي الذي يطبَّق فيه هذا المبدأ، ودفعًا للخطأ الذي ينجُم من أخذه علىٰ إطلاقه؛ ذلك أنّ الأمور «الضرورية الوجود»- ككون الكلّ أكبر من جزئه، وكون الشيء عين نفسه، وأنَّ ضمَّ الواحد إلىٰ الواحد ينشأ عنه اثنان وضمَّ الصفر إلىٰ الصفر لا يخرج منه عددٌ إيجابيّ، إلىٰ غير ذلك من أحكام قانون العينية- تحمل في طبيعة مفهومها سببَ وجودها، فهي موجودة بنفسها لا بسببٍ خارجيٍّ، والأمور «المستحيلة»- ككون الجزء أكبر من كلِّه، وكون الشيء غير نفسه، أو عين غيره، إلىٰ غير ذلك من أحكام قانون التناقض- تحمل في نفسها سببَ عدمها؛ فلا تقبل الوجود بنفسها ولا بغيرها؛ أمَّا «الممكنات» التي تقبل الوجود والعدم ولا تقتضي طبيعتها واحدًا منها، فإنَّ وجودها إنما يَرِدُ إليها من سببٍ خارجٍ عنها حتمًا؛ إذ لو وجدت بنفسها لكانت واجبة الوجود، وهو خلافُ المفروض(د).

وأمَّا قانون الغائيَّة فمن موجبه أن كلَّ نظام مركَّب متناسق مستقرّ لا يمكن أن يحدُث عن غير قصد، وأنَّ كلّ قصدٍ لا بُدّ أن يهدف إلىٰ غاية، وأنَّ هذه الغاية، إذا لم تُحقِّق إلَّا مطلبًا جزئيًّا إضافيًّا منقطعًا، تشوَّفت النفس من ورائها إلىٰ غايةٍ أخرىٰ . . . حتىٰ تنتهي إلىٰ غاية كلِّيَّةٍ ثابتة هي غاية الغايات.

نعم إنَّ طاقة البشر، وطبيعة المخلوق، أعجز من أن تحصي مراحل الأسباب والغايات مرحلةً مرحلةً، وتَتَابَع سلسلتها حلقةً حلقةً، حتىٰ تشهد بداية العالم ونهايته؛ ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء وغايتها الأخيرة، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة، وكان قُصاراها أن تخطو خطوات معدودة إلىٰ الأمام أو إلىٰ الوراء، تاركةً ما بعد ذلك إلىٰ ساحة الغيب التي يستوي في الوقوف دونها العلماء والجهلاء.

ولكنَّ هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلًا في ماضيها ومستقبلها، يقابله يقين إجمالي ينطوي كلُّ عقلٍ علىٰ الاعترافِ به طوعًا أو كرهًا، وهو أنَّه مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنة والغايات الجزئية، وسواء أفُرِضَت متناهيةً أو غير متناهية، فإنه لا بُدّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سببَ وجوده وبقائه، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء، والغاية الحقيقية التي ليس بعدها شيء، وإلا لبقيت كلّ هذه الممكنات في طيِّ الكتمان والعدم (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقلٍّ)، أو لبقيت لغزًا وعبثًا غير معقول (إن لم تكن لها غايةٌ تامَّة تنقطع بها لَجَاجة النفس ويستقر مضطربها).

نقول: إنَّ وجود هذه الحقيقة الأولىٰ والأخيرة ضرورة عقلية لا مناصَ من التسليم بها، ولا مجال لأحد أن يُكابر فيها متىٰ فكَّر قليلًا في الوضع الذي يئول إليه إنكارها؛ اللهمَّ إلا إذا فرضناه كائنًا أخرق، لا يُذعن لقواعد المنطق والحساب، ولا يبالي أن يُبطل كلّ شيء في الأذهان.

فإذا سألنا هنا عن نشأة العقيدة الإلهية، فليس سؤالنا عن منشأ هذه الضرورة الكامنة في العقل الباطن، والتي هي من الأوليات التي لا يُسأل عن مصدرها؛ وإنما السؤال عن العوامل والملابسات التي تكون قد رفعت هذه الحقيقة إلىٰ مستوىٰ الوعي المتيقظ، ثم لم تكتف بإبرازها أمام العقل قضية نظرية، بل حولتها إلىٰ فكرة حية ملهبةً